

الأسرة الجزائرية الواقع والمؤثرات.

د. منصور رحمانى

جامعة سكيكدة

الملخص

يتفق أغلب المهتمين بالشأن الأسري الجزائري على أن الأسرة الجزائرية الحديثة لم تعد تؤدي دورها التربوي كما كانت من قبل، فهي وإن تمكنت من تحقيق الرفاه المادي والتعليمي لأبنائها، فإنها لم تنجح عموما في الوظيفة التربوية التي تخرج المواطن المتزن فكريا وسلوكيا، يدل على ذلك الآفات الاجتماعية الحديثة التي لم نعرفها من قبل مثل الإجهاض والانتحار، وما يسمى بالحرقة، وارتفاع مستويات الجريمة حتى تكاد أن تكون أصلا لا سلوكا شاذا كما كانت من قبل، وهذه المداخل سوف تبحث في حقيقة علاقة الأسرة بالآفات الاجتماعية المستحدثة وأسباب ذلك.

مقدمة:

يعرف بعض العلماء الأسرة بأنها (جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك وتعاون اقتصادي ووظيفة تكاثرية، ويوجد بين إثنين من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع، وتتكون الأسرة على الأقل من ذكر بالغ وأنثى بالغة وطفل سواء أكان من نسلهما أو عن طريق التبني) عاطف وصفي بغير سنة ص 91.

وعلى الرغم من الملاحظات المسجلة على هذا التعريف فإنه قد رسم لنا الشكل العام للأسرة النموذجية الصغيرة، لأن هناك أسرا فقدت الأب أو الأم عن طريق الوفاة أو الطلاق ومع ذلك تبقى أسرة، كما أن هناك أسرا أخرى تفتقد إلى الأولاد وتبقى تحمل نفس التسمية، مع الإشارة إلى أن تعاريف الأسرة كثيرة ومختلفة عند علماء الاجتماع، غير أنها كلها تدور حول هذا المعنى الذي ذكرته. ومن خلال البنية اللغوية فإن كلمة الأسرة مشتقة في أصلها من الأسر الذي يعني في اللغة التقيد ومن هذا الأسر اشتقت كلمة الأسرة، فالأسرة هي الدرع الحصين، والأسرة أهل الرجل وعشيرته والأسرة هي الجماعة التي يربطها أمر مشترك (عبد الله خوج وفاروق عبد السلام 1409 هـ)

فالمعروف في اللغة العربية هو وجود علاقة وطيدة بين معنى الاسم وأصله، والأسرة تمثل برباطها سورا معنويا منيعا يحيط بجميع أفرادها يشتركون في أخص الواجبات، وفي أخص

الحقوق، وهي بذلك أشبه ما تكون بالخلية في جسد المجتمع، فإذا كانت الأمور بداخلها تسير بشكل سليم فإن المجتمع بالضرورة يكون سليما هو الآخر، فمكانتها في المجتمع بمثابة القلب من الجسد إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ويمكن التنبؤ دون عناء بمستقبل مجتمع انطلاقا من ملاحظة حال الأسرة فيه، فهي التي تصنع لبناته وعلى قدر قوتها وصلابتها يكون المجتمع صلبا ومستمرا.

قد ينهار نظام الحكم في دولة ما، وينهار اقتصادها، ويقتل جزء كبير من شعبها، ولكن النظام الأسري لا ينهار، لأن جذوره ضاربة في الأعماق، فقد احتل المستعمر الفرنسي بلادنا، وقضى على حكمها وقوانينها، وعلى جزء كبير من شعبها، كما قضى على اقتصادها وحرف لغتها، ولكن الأسرة الجزائرية ظلت كما كانت.

لقد كانت الأسرة الجزائرية قديما قوية متماسكة يدل على ذلك قوة الدولة الجزائرية التي فرضت هيمنتها على البحر المتوسط، ولقد استطاع الفرد الجزائري أن يكون دولة مهيبة الجانب، فهو الذي أنشأ الدولة الفاطمية في مصر والدول المتعددة التي ظهرت في الجزائر على غرار الدولة الحمادية، ودولة الأغالبة والدولة الرستمية وغيرها من الدول التي شهد التاريخ بقوتها، وفي الماضي القريب تمكن الفرد الجزائري من دحر وطرده حلف شمال الأطلسي ممثلا في فرنسا من الجزائر، على الرغم من سياسة التجهيل التي مارسها الاستعمار لأكثر من قرن وربع من الزمان، وقد أرجع المفكر الجزائري الفذ مالك بن نبي سبب ما آلت إليه الجزائر ومثيلاها من الدول إلى ما سماه بقابلية الشعوب للاستعمار.

واليوم تملك الجزائر استقلالها والحمد لله، وعدد سكانها لا يجوز الخمسة وثلاثين مليوناً والخيرات تحيط بها من كل جانب، والناظر في هذه المعطيات على الورق سيجزم بلا شك بأنها البلاد النموذجية للعيش، وأسرها هي أفضل ما يعيش الفرد في كنفه، ولقد سُئلت مرتين في وقت سابق من أجناب مسلمين وفي وقتين مختلفين عن فتيات جزائريات من أجل الزواج لما سمعوه أو شاهدوه من حال المرأة الجزائرية في تلك الفترة، فهل ما زالت الأسرة والمرأة في الجزائر بنفس تلك الجاذبية اليوم؟ وهل يمكن لهذه الأسرة أن تخرج لنا أفرادا في مستوى التحديات، وبسؤال بسيط ومختصر أتساءل عن حقيقة ما تصنعه الأسرة الجزائرية الحديثة اليوم، وما هي أسباب ذلك؟

أهم أزمات الفرد الجزائري الحديث والتي لها علاقة بالأسرة

عندما هبت عواصف العولمة في السنوات الماضية هدمت كثيرا من الأسوار المحصنة، فسلبت السلطة الثقافية عن الحكومات وأصبحت السيادة الوطنية للدول مهددة، وبدأت سلطة التحكم تتسرب كما تتسرب حبات الرمال من بين الأصابع، وهذا الوضع أثر هو الآخر على وظيفة الأسرة، وأصبح تحكم الأسرة في أفرادها كتحكم الحكومات في شعوبها، وهذه الظروف خلقت العديد من الأزمات النفسية والأخلاقية وصعوبة في التكيف لدى العديد من الأفراد خصوصا مع غياب الضمير الموجه، وأبرزت عدة مشاكل عالمية، وفي الجزائر ظهرت مشاكل لم تكن مطروحة بشدة من قبل، أهمها أربع وهي : ارتفاع مستويات الجريمة إلى درجات مرعبة، والانتحار، والمخدرات والإجهاض وأخيرا الهجرة الفوضوية.

صحيح أن هذه المشاكل تساهم فيها العديد من الأوساط وليست الأسرة لوحدها لكن الأسرة هي التي تتحمل العبء الأكبر لأن هذه المشاكل ترتبط بشكل مباشر بالقناعات التي تنشأ وتترعرع بين أحضان الأسرة، فلولا التقصير من الأسرة في مرحلة من المراحل لما حدث كل ذلك بنفس الدرجة وفي الوقت ذاته.

أولا: الارتفاع المذهل للجريمة

لعل أوضح دليل على هذا الارتفاع هو تحول المنازل في الجزائر إلى ما يشبه الأقفاس الحديدية، تلاحظ ذلك في النوافذ والأبواب، وتلاحظ ذلك في الطرقات على مستوى مواقف السيارات، وتلاحظ ذلك على مستوى المحاكم والمؤسسات العقابية، حيث فقد الكثير من الأولياء السيطرة على أولادهم إلى درجة أن يأتيني أحد الأولياء يطلب مني التوسط لدى الشرطة من أجل إدخال ولده الحدث المرتكب لعدة جرائم إلى السجن، ليرد المسؤول في الشرطة بوجود العديد من هذه النماذج التي تترك عائق التربية على الشرطة في حين أنه من واجباتها.

والمأمل في الإحصاءات المتعلقة بعدد المساجين حسب ما قدمته الجهات الرسمية والموجود في الجدول أدناه يلاحظ أن عدد المساجين وبالتالي المجرمين في الجزائر قد ارتفع كثيرا، وإذا رجعنا إلى التقارير الدولية القائلة بأن الشرطة لا تلقي القبض في العالم الثالث إلا على 10 بالمائة من المجرمين، فسيكون عندنا حينها في الجزائر 590000 مجرما، بنسبة 1695.4 مجرم من

كل 100000 ساكن، وسيكون في العاصمة حينها وهي التي يبلغ عدد سكانها 2947446 نسمة 49963.43 مجرماً.

وليس معنى هذا أن مؤسسة الأسرة هي المسؤول الوحيد عن هذا الوضع، ولكنها تتحمل الجزء الأكبر منه، وأي مستقبل للأسرة إذا تزوج نصف هؤلاء فقط وتمكنوا من تكوين أسر على شاكلتهم، وتحقق منهم قول الشاعر

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عود أبوه

إحصائيات إجمالي عدد السجناء في بعض الدول مقارنة بعدد السكان (منصور رحمانى - 2006)

الدولة	إجمالي عدد السجناء	تاريخ التعداد	عدد السكان بالمليون	النسبة من كل 100 ألف
الجزائر	35737	1996	28.6	124.95
الجزائر	59000	2008	34.8	169.54
ليبيا	6750	1998	5.3	127.35
مصر	80000	1998	66	121.21
المغرب	48600	1997	27.9	174.19
السودان	32000	1997	27.9	114.69
تونس	23165	1996	9.2	251.79
أمريكا	1933505	2000	276.5	699.27
فرنسا	46376	2001	59.6	77.81

ثانيا: الانتحار:

وهو من الجرائم المستحدثة في الجزائر والتي وصلت بسرعة فائقة إلى أرقام مذهلة فحسب دراسة غير رسمية تقريبية أشرف عليها مجموعة خبراء من تخصصات مختلفة مثل علم النفس، الاجتماع، علم الأعصاب من مركز البحث والدراسات المعمقة حول الإنسان لحساب منظمة غير حكومية تعنى بالصحة فإنه يتم تسجيل ما معدله 10 آلاف محاولة انتحار فاشلة سنويا في الجزائر وبلغت الأرقام فإنه تسجل في الجزائر حوالي 27 محاولة انتحار في اليوم أي محاولة انتحار في كل ساعة و هو رقم رهيب و جد خطير يقترب من الرقم الضخم المسجل في تونس حيث تقدر بعض المصادر عدد محاولات الانتحار سنويا بواحد في الألف أي أن زهاء عشرة آلاف تونسي يحاولون الانتحار كل عام تنجح فرق الإسعاف في إنقاذ أغلبهم.

وقالت الدراسة التي نقلت جزءا من محتوياتها الي بي سي أونلاين إن هناك أسبابا عديدة وراء هذه الظاهرة منها أفلام العنف للصغار والكبار، والأغاني التي تشجب الحبيب الغدار والخليعة الخائنة، والطموحات التي باتت بلا حدود وأوهام نشرتها آلاف القنوات الفضائية في كل بيت، وسلوكيات غريبة في الأحياء الشعبية والغنية على حد سواء، إضافة إلى الفراغ الديني، والأمهات العازبات (تونس أونلاين - شبكة النبأ المعلوماتية).

أما في الجزائر وفي نفس السياق كشف البروفيسور خياطي رئيس مؤسسة البحوث الطبية "فورام" المستقلة في مداخلة له في ملتقى نظمتة المؤسسة بدار الشباب بالخراس أن معدلات الانتحار أخذت أبعادا خطيرة في الجزائر مستدلا بالدراسة المحدودة التي أشرفت عليها المؤسسة التي تناولت الظاهرة من سنة 1995 إلى سنة 2003 حيث تم تسجيل ما معدله حالة انتحار في كل 12 ساعة (موقع أمان - المركز العربي للمصادر والمعلومات حول العنف ضد المرأة 21 جوان 2008).

البلد	النسبة /100ألف	البلد	النسبة /100ألف
ليتوانيا	42	هنغاريا	32.1
روسيا	37.4	سلوفينيا	30.9
بيلاروسيا	35	أوكرانيا	29.4
لاتفيا	34.3	كازاخستان	28.7
استونيا	33.2	تونس	100
فرنسا	22.2	أمريكا	67
الجزائر	02.09	بريطانيا	14

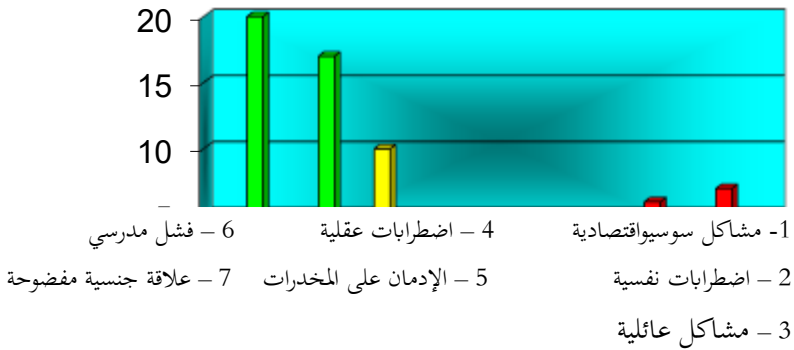
إحصائيات الانتحار في بعض الدول

والأسباب الدافعة للانتحار في الجزائر وفي العالم تكاد تكون نفسها، وهي الفراغ الروحي، والإخفاقات المختلفة، والإحساس بانعدام الهدف من الحياة، خصوصا مع غياب التواصل بين أفراد الأسرة الحديثة، حيث يخلو الفرد المتأزم مع نفسه، وحيث أنه يفتقد إلى العقيدة الصحيحة والعقل السوي والمعين المساعد، ويجد الجو المناسب للانسحاب من الحياة فيفعلها في صمت.

ومن خلال الدراسة التي أعدها الأستاذ ابراهيم بوالفلغل حول ظاهرة الانتحار

بولايات بجاية وجيجل وسكيكدة، كشفت الدراسة المتعلقة بولاية سكيكدة أن أغلب أسباب انتحار الذكور يعود إلى مشاكل سوسيواقتصادية، تليها الاضطرابات النفسية، أما أغلب أسباب انتحار النساء فتعود إلى المشاكل العائلية تليها الاضطرابات العقلية (ابراهيم بوالفلل - مجلة البحوث والدراسات الإنسانية - عدد 02 ص 259).

ي بيين العوامل المؤدية للانتحار بولاية سكيكدة (2000 2004)



ثالثا : المخدرات

لم تعد المخدرات اليوم محصورة في فئات خاصة من المجتمع على غرار الخمر، بل امتدت إلى النساء والأطفال، وهي الجرائم وثيقة الصلة بالأسرة لأن النجاح في مكافحة التعاطي لا يكون بقوة القانون بقدر ما يكون بالعمل الأسري المتواصل بسبب أنها من الجرائم الخفية، التي تتم مكافحتها بالقناعات أكثر من أي وسيلة أخرى، وعلى الرغم من السرية التي تطبع هذه الجرائم بمستوياتها المختلفة تعاطيا وترويجا، فإن ما تم ضبطه منها يشير إلى المنحنى البياني الذي تسير فيه، فلقد عرف تعاطي المخدرات في الجزائر ارتفاعا مذهلا في السنوات الأخيرة، فمثلا من أصل 17 قضية مطروحة على المحاكم الجزائرية بالشرقة الواقعة غرب الجزائر العاصمة خلال اليوم الواحد هناك 10 قضايا متصلة باستهلاك المخدرات والاتجار فيها. وقد زاد عدد الحالات التي تلقتها وكالة الأمن وكميات المخدرات المحجوزة في السنوات الأخيرة. وبالإشارة إلى إحصائيات (الشرطة والجمارك) نجد أن عدد القضايا المتعلقة بالتهريب تقترب من 7000 قضية في السنة. وفي عام 2006 تمت متابعة 10 آلاف شخص قضائيا مقارنة مع 8500 في عام 2004 (Magharebia_com.htm).

والمتمثل في كميات المخدرات المحجوزة والواردة في الجدول الموالي يلاحظ أنها ترتفع

كميات المخدرات المحجوزة من سنة 1992 إلى سنة 2007	
السنة	كميات المخدرات المحجوزة (طن)
1992	6,621
1993	1,228
1994	1,590
1995	4,322
1996	2,416
1997	2,319
1998	2,659
1999	4,452
2000	6,262
2001	4,826
2002	6,110
2003	8,068
2004	12,373
2005	9,644
2006	10,046
2007	16,525

عاما بعد عام بسبب أنها أصبحت تزرع عندنا في الجزائر حيث أن مصالح الدرك الوطني تمكنت في شهر أبريل الماضي (2007) من اكتشاف مزرعة بولاية أدرار جنوب الجزائر لأحد الفلاحين وبها أكثر من 160 ألف نبتة من القنب الهندي. إضافة إلى تكثيف أطراف خارجية مجهوداتها لتحويل الجزائر إلى سوق مربحة في هذا المجال، دون أن ننسى التعديل الأخير في قانون العقوبات الذي تخلى عن عقوبة الإعدام بالنسبة للمروجين. وبما أن أفضل وسيلة لمكافحة المخدرات هي الفرد ذاته باجتنابها

من الأساس، وإرادته على الإقلاع إذا أصبح مدمنا، فإن دور الأسرة لا يماثله دور آخر، وذلك ببناء قناعات ذاتية لأفرادها وإحاطتهم بالمكائد التي تدبر هنا وهناك، فالفرد مضطر إلى الخروج والسفر والمخالطة ولا أفضل من تزويده بجهاز ذاتي يرافقه في كل مكان يحميه من كل ما يصادفه من شركاء ومكائد (عيسى قاسمي - الملتقى الدولي حول مكافحة المخدرات - قسم علم النفس جامعة المسيلة).

رابعا: الإجهاض

عادة وغالبا ما يكون الإجهاض جريمة غايتها إخفاء جريمة أخرى وهي جريمة الزنى، ولذلك تكثر هذه الجريمة في البلاد التي يحرم دينها وثقافتها هذه الجريمة، حتى ولو كانت كل القوانين لا تجرم هذا الفعل - أي الزنى -، ولذلك فإن جرائم الإجهاض تختلف من بلد إلى آخر ومن وسط إلى آخر حسب درجة الدين وحسب موقف الرأي العام من مسألة الشرف

والعرض، ففي البلاد الأوروبية والغربية عموماً تشيع فواحش الزنى ويرأها الرأي العام من ضمن الحريات الشخصية، فيقبلون هذه العلاقة بشيء من الاقتناع، ولذلك فأهل البنت قد يكونون على علم بعلاقة ابنتهم خارج إطار الزواج ومع ذلك لا ينكرون عليها، وهم نتيجة لذلك يتوقعون منها أن تحمل، ولذلك فإنها إذا حملت فلا تشعر بشيء من الحرج فضلاً عن أن تفكر في الإجهاض، وهذا بخلاف ما عليه الحال في البلاد الإسلامية مثلاً.

ولهذا فإن خطأ البنت تترتب عليه حسابات كثيرة، فعلى الرغم من أن القانون لا يكاد يمنع من الزنى ويجرم الإجهاض (م304) وفي ذلك تشجع ضمناً على الزنى فكأنه يقول : إذا زنيتم فلا مشكلة وإذا وقع الحمل فحذاري من إجهاضه أو قتله إثر ولادته، وهنا تقع البنت بين أمرين متناقضين دين ومجتمع يجرم الزنى والإجهاض من جهة، وقانون يبيح الزنى ويمنع من الإجهاض، فتقدم على الزنى سرا ولا تقوى على أن ينتشر خبرها بأنها مخالفة للدين وللرأي العام وطاعة في شرف الأسرة الغالي فلا تجد أمامها إلا الإجهاض، ولهذا فإن الإجهاض في البلاد المحافظة لا يكون إلا مع ابن الزنى، وفي البلاد الأخرى يستوي إجهاض ابن الزنى مع إجهاض الابن الشرعي.

ونشير في هذا الموضوع أن كل الأديان السماوية تجرم الزنى بما في ذلك المسيحية المنتشرة في الغرب، وكان هذا السلوك مجرمًا حتى في القوانين العقابية، ولم يبلغ تشريعه إلا منذ زمن يسير، حيث ألغى المشرع الفرنسي هذه الجريمة بقانون صدر في 11 يوليو 1975، كما ألغى في ألمانيا عام 1969، أما في إيطاليا فقد ألغت المحكمة الدستورية جنحة الزنى في 19 ديسمبر 1968 (منصور رحمانى 2006).

وفيد تحقيق أعدته الملازم سميرة بلحاج جللول من قيادة الدرك الوطني، أنه تم تسجيل 80 ألف حالة إجهاض سنوياً في الجزائر مقابل 77500 ولادة منها 7 آلاف ولادة خارج مؤسسة الزواج مشيرة إلى أنه في 100 حالة ولادة، تسجل 10.5 بالمائة حالات إجهاض، 11.3 بالمائة منها في الوسط الحضري مقابل 9.9 بالمائة في الوسط الريفي وهو مؤشر على تسلل الظاهرة إلى المدن والأرياف. ولا توجد في الواقع إحصاءات رسمية أو أرقام عن إجهاض الحوامل خارج الزواج لكن التحقيق يكشف وفاة 78 امرأة العام الماضي خلال 8 أشهر فقط خضعن للإجهاض لدى قابلات أو أطباء غير مؤهلين في ظروف صحية شبه معدومة،

وسجلت في نفس الفترة 21 حالة إجهاض غير شرعية بمعدل 3 عمليات في شهر واحد (موقع الخيمة السبت 21 جوان 2008).

ويدل ارتفاع نسب الإجهاض في الجزائر على أمرين، الأول ارتفاع نسب الزنى والفواحش الذي يعبر عن الغياب الكلي للأسرة في المراقبة خصوصا مراقبة الفتيات، والمحافظة على الأعراض، والثاني يدل على نظرة الرأي العام الجزائري إلى الفاحشة وما ينتج عنها نظرة ازدراء واحتقار مصدرها العاطفة الدينية القوية للمجتمع الجزائري، ونستشف من ذلك شيئا من حقيقة واقع الأسرة الجزائرية الحديثة، فهي متدينة شكلا حتى النخاع، أما التدين العملي الذي يتحول إلى سلوك فهو غائب غيابا شبه كلي، ومن المفارقات الغريبة أنك تجد الكثير، أقول الكثير من الجزائريين يفعلون كل المحرمات ويؤدون في الوقت ذاته كل النوافل والواجبات.

فتجد الرجل الذي حج عدة حجات، ولا تفوته في المسجد أي صلاة، ومع ذلك فلا يرى حرجا في التعامل بالربى والرشوة والغش والغيبة، وتجد البنت التي تغطي بعض رأسها بخمار وتؤدي صلواتها وتفاجأ بها بعد ذلك على الشواطئ وفي الغابات في مناظر حيوانية مخزية.

وقد يزداد عجبك كما ازداد عجبي إذا علمت أن هناك العديد من النساء يرسلن بناتهن إلى الخارج ويشجعنهن على إقامة علاقات من أجل الزواج، ورأيت إحدى المجلات الجزائرية المهتمة بشؤون المرأة وضعت في الصفحة الخارجية عبارة إتيكات اصطبياد زوج المستقبل، وكأن هؤلاء لا يعرفون أن هناك أقدارا في الزواج، وهو من الرزق الذي يأتي من السماء بسعي وبغير سعي، فعلام تمرغ البنت أنفها؟

خامسا: الهجرة الفوضوية

تكشف قوارب الموت العابرة للمتوسط نحو دول الشمال، براكبيها الذين تنتهي بهم تلك الرحلة إما إلى موت محقق في أعالي البحار، وإما إلى ذل وهوان إذا ما وصلوا إلى الضفة الأخرى، أن أسرهم لم توفر لهم ما يغريهم بالبقاء بين أحضانها، وهذه الهجرة فيها إذلال لمجموعنا، وإذا كان آباؤنا يملكون قابلية للاستعمار فإننا - مع الأسف الشديد - نملك جاذبية للاستعمار، فالذي يموت من أجل أن يذهب إلى هناك ليمارس من الأعمال ما يأنف أن يمارسه هنا، لن يتردد في قبول أن تأتي إليه تلك الأمم بدل أن يذهب إليها.

وهذه الهجرة ليست من الأمور المستحدثة عندنا، وإنما الجديد هو تفاقمها، وأصبحت عند الكثير لا تتم بدافع الضيق أو الحاجة وإنما لأهداف غير معروفة، ومن ذلك مشاركة الفتيات في هذه الهجرة وهن مكفولات ماديا من طرف أوليائهن، وهجرة بعض المقاولين والمرتاحين ماديا، فلا ينبغي والحالة هذه أن تُصب اللائمة على الدولة، وإنما على الأسرة التي لم تتمكن من السيطرة على أفرادها. هذه هي أكبر التحديات التي تواجهها الأسرة الجزائرية البالغ عددها وفقا للإحصاء الأخير 5 ملايين و776 ألف و441 أسرة (الأيام الجزائرية - العدد 832)، والسؤال الذي يُطرح هنا ما الذي تغير في هذه الأسرة حتى حدث ما حدث؟ أو ما هي خصائص الأسرة التي أنتجت هذا الواقع المر؟

خصائص الأسرة الجزائرية الحديثة:

أشير في البداية إلى أن هذه الخصائص التي سأذكرها ليست هي السبب الوحيد لهذه الأزمات، فهناك أسباب خارجة عن نطاق الأسرة سنأتي إلى ذكر بعضها في المؤثرات على وظيفة الأسرة، والخصائص التي تتميز بها الأسرة الجزائرية الحديث والتي لها علاقة مباشرة بالقصور التربوي هي:

1 - أسرة استهلاكية مادية: فأغلب الأسر الحديثة أصبحت من النوع النووي الذي يضم الزوج والزوجة والأولاد غير المتزوجين الذين يقطنون تحت سقف واحد (نبيل احمدشة - مجلة البحوث والدراسات الإنسانية - ص119)، وهذه الأسرة همها أن تحقق المفهوم الشكلي للأسرة المتكون من منزل وزوجين وأولاد وسيارة وشهادات، فالأسرة الجزائرية الحديثة تسعى بأيديها وأرجلها لتحقيق العناوين بغض النظر عما تحتها، ففي كل صباح ألحظ سيارات توزع الأطفال الصغار والرضع على العمارات الموجودة بحينا، لأن الأب والأم يعملان، يسعيان لتعمير الدار - كما يقولان - ويشتريان سيارة ولو بالديون، ولو بالربا والفوائد، ولو كانا في غنى عنها، ويسعيان إلى أن ينال أولادهما الشهادة ولو كانت بغير رصيد علمي، المهم أن تظهر الأسرة ناجحة أمام الحساد - كما يقولان -.

وأنفاجاً كثيراً عندما يأتيني آباء ممن يحملون شهادات جامعية يطلبون أن ينجح أبنائهم في المقياس، وعندما أخبره أن ابنه لم يحضر المحاضرات يوماً واحداً، وهو بحاجة إلى استدراك يكون نفسه، أجد عنده إجابة جاهزة مفادها أنه يدخل ابنه إلى مؤسسة تطلب الشهادة ولا حاجة

له بالعلم ليمارس الوظيفة.

2 - أسرة تنهرب من المسؤولية: فالأب تتخلى عن مسؤوليته لصالح الأم، وهي بدورها تخلت عنها لصالح الأولاد، فكل واحد يبحث عن راحته الخاصة، فأصبحت مهمة الأب توفير المال الكافي لتسيير الأسرة، في حين تولت الأم دور الأمر بالصرف مع الأولاد الذين أصبحوا هم المسيرين، ولذلك فلا تعجب إذا رأيت الأسواق والمحلات قد مُلئت بالنساء والأطفال والفتيات اللواتي تخلين عن المسؤولية التربوية لصالح التسوق، في حين التحق الرجال بالمقاهي، ولم تستطع الأم المتعلمة أن تخرج ما كانت تخرجه الأم الأمية عندنا.

إن الأم الحديثة تتخلى عن ابنها ابتداء من الشهر الثالث لصالح عملها، واستعاضت عن إرضاعه بحليبها الغني بمكونات كيميائية تأتينا من الخارج، ولذلك أصبح الأطفال الصغار يميلون إلى آبائهم أكثر من أمهاتهم، وعندما يصل الطفل إلى سن الخروج من البيت لوحده يسعد الكثير من الأولياء بهدوء البيت، ولقد رأيت أما توبخ ابنها ذي العشر سنوات بعد أن أخرجته من البيت قائلة: هل تريد أن تصبح طفلة حتى لا تخرج من البيت، ولذلك كثرت جرائم اختطاف الأطفال، وجرائم الأحداث، ونشأ لدينا جيل مهزوم نفسيا.

تأمل معي في موضوع الزواج مثلا كيف أصبحت موافقة الأب ليست إلا تبعا لموافقة الزوجة، وموافقة الزوجة ليست إلا تبعا لموافقة البنت أو الابن، ولو كان المتقدم للزواج ليس كفؤا لابنه أو بنته، فيقول: المهم أن تكوني راضية متخلية عن واجبه في التحقق من مدى مناسبة هذا المتقدم لمصاهرته، ولم يكن أبائنا بهذا الشكل من الهروب نحو الأمام، وليس هؤلاء بأحرس على مصلحة أبنائهم من أولئك.

معرفة الوظيفة التربوية للأسرة

إن ما تقدم حول بعض الخصائص السلبية للأسرة الجزائرية الحديثة لا يعني بتاتا أنها لم تقدم أي شيء لأبنائها ن بل إن الأسرة على ما هي عليه من الاهتمام بالشكليات والمظاهر تقوم أيضا بمحاولات جادة في التربية، وإن لم تأت بثمارها المرجوة، وذلك لوجود مجموعة من العوامل المؤثرة على الأسرة والأبناء على حد سواء، وتعبير آخر فإن هناك عوامل تؤثر في الأولياء في العملية التربوية، أو يهملونها بالكلية، وهناك عوامل أخرى لا تؤثر في الأولياء وإنما تؤثر في الأبناء.

أولا: العوامل المؤثرة في الأولياء

1 - العامل الاقتصادي: من أبرز العوامل التي تؤثر في الأولياء الطرف الاقتصادي المتعلق إما بضيق المسكن الذي يكون محلا للوظيفة التربوية، فلا يجد الولي فرصة للجلوس المركز مع الأولاد، ويصبح البيت مجرد مكان للأكل والنوم فيما يقضي الأولاد أغلب الوقت خارجه، وقد يكون المسكن واسعا بالنسبة لعدد أفراد الأسرة، ولكن بقاء الأب والأم أو أحدهما دائما خارج البيت، يفوت على الأولاد فرصا معتبرة للتوجيه، وهذا الفراغ الذي يتركه الوالدان، يُمَلَأ في العادة من الخارج بتوجهات سلبية تترعرع مع مرور الزمن لتتحول إلى التحديات سالفة الذكر.

2 - الأمية الفكرية عند بعض الأولياء: وأقول الأمية الفكرية لأن أمية القراءة والكتابة تكاد تختفي، وهذه الأمية مع الأسف الشديد نلاحظها كثيرا حتى عند طلبة الجامعات، أمية متعلقة بالهدف من الزواج، والهدف من تربية الأولاد، والهدف من الحياة، فالكثير من الأولياء صاروا يعتقدون أن الحياة مبنية في عمومها على - الشطارة - فهو يوصي ابنه أن يكون صعبا مع أترابه، وأن لا يتسامح في شيء، وعندما يُجرى الامتحان تجدد الأولياء يسعون هنا وهناك يبحثون عن الخيط - كما يقولون -، ومن جهة أخرى فإن القدوة عند الكثير من الأولياء غائبة تماما، فبدخن أمام أبنائهم، ويتفرج أفلام غير تربوية معهم أيضا، جاهلا أن الأطفال يميلون إلى الاهتمام بالشخصيات البارزة في الأفلام، وغالبا ما يمثلون ما يشاهدونه في ألعابهم اليومية، ولقد اشتهرت في هذا السياق حادثة ثانوية little town في الولايات المتحدة حيث قتل مراهقان 15 من زملائهم بأسلحة رشاشة على غرار المشاهد التلفزيونية، وقد كشف التحقيق أن الطفلين قد تأثرا بلعبة فيديو (عزالدين جميل عطية 2001). وفي موضوع الزواج رأيت مراقبة عامة في إحدى الثانويات متدمرة من ابنتها الجامعية لأنها لم تعمل على اصطيد رجل، ورأيت على الغلاف الخارجي لمجلة جزائرية عنوان: إيتيكات اصطيد زوج المستقبل، وهكذا.

3 - بعض المشاكل الاجتماعية: من تلك المشاكل ارتفاع نسب العنوسة في المجتمع الجزائري الحديث، خصوصا وأن الإحصائيات تشير إلى أن نسبة العزوبة لدى الجزائريين قد بلغت 49,2 % من مجموع السكان الذين وصل عددهم بتاريخ أكتوبر 2002 أكثر من 31 مليون نسمة في عملية مسح قام بها الديوان الوطني للإحصائيات بمساهمة وزارة الصحة والسكان و بالتعاون مع جامعة الدول العربية (الشروق اليومي عدد 837).

ومؤخرا كشفت الأرقام الرسمية التي أعلنها الديوان الجزائري للإحصاء أن هناك أربعة ملايين فتاة لم يتزوجن بعد على الرغم من تجاوزهن الرابعة والثلاثين، وأن عدد العزاب تخطى 18 مليون من عدد السكان البالغ 30 مليون نسمة، وإذا كان عدد من تجاوز الرابعة والثلاثين بغير زواج هو هذا العدد، ترى كم يكون عدد اللواتي تجاوزن العشرين دون زواج؟، لا شك أن هذا العدد يساوي عدد سكان دولة بأكملها، ولا غرو بعد ذلك أن ينشر موقع على شبكة الأنترنت أن عدد عوانس الجزائر يساوي عدد سكان ليبيا (منصور رحماني - المعيار). إن هذه الوضعية تضغط على الأولياء فتقل رقابتهم على أبنائهم خصوصا البنات، ويصبح الولي يشعر أن مسؤولية ترويض أبنائه لا تعنيه في شيء، ومن هنا تبدأ المشاكل الأخلاقية وما ينتج عنها من إجهاض، وتسبب أخلاقي، وضياح تدريجي للفضيلة، وتدمير لمختلف القيم التي تحكم الأسرة.

ثانيا: العوامل المؤثرة في الأبناء

قد يتفرغ الأولياء لأبنائهم، وينجحون في تقديم فعل تربوي جيد، وبما أن الأولاد لا بد وأن يخرجوا من البيت، وأن يخالطوا غيرهم ن فقد ينهار ما بناه الآباء في طرفة عين.

متى يبلغ البنين يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

والعوامل المؤثرة على الأبناء عديدة منها:

1 - غياب الرأي العام الفاضل الذي يغير السلوك السليبي، مع قصور الإجراءات القانونية في هذا المجال، ومن ذلك انتشار الإباحية الجنسية في أماكن المنتزهات، فقد تسألك العائلة أو الأولاد أن تأخذهم في رحلة إلى الشاطئ مثلا، وهناك لن تجد مكانا نظيفا أخلاقيا تستطيع الجلوس فيه، حيث احتل المنحرفون جميع الأماكن الجميلة، وستكون مجبرا على العودة إلى البيت أو غض البصر وترك الأولاد يتعلمون تلك السلوكات، وفي السنوات الأخيرة بلغ السيل الزبي، فأصبحت الخيام تنصب على الشواطئ ابتداء من شهر مارس، وأمام مداخل المؤسسات التربوية والعمارات انتشرت طاولات بيع السجائر التي عادة ما يدبرها خريجو سجون الذي يجمعون الصغار المراهقين ليسردوا مغامراتهم.

صحيح أن القانون كفل الحريات للناس وهو أمر جيد، لكن هناك العديد من الناس ليسوا في مستوى التصرف بحرية، ولذلك لا بد أن نعود بهم إلى قول المتنبي

لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

2 - وسائل الإعلام والاتصال الحديثة: وعلى رأسها التلفزيون والسينما والانترنت والهاتف النقال، حيث أن وجود الفضائيات بمختلف توجهاتها أضفت قيمة سلبية على الأبناء، ويذكر أحد النقاد المتخصصين تابع عشر حلقات من مسلسل رمضاني متكون من ثلاثين حلقة، فوجد في هذه الحلقات العشر الأولى فقط ثلاثمائة قيمة سلبية، والكثير من الأسر تشتبك في خدمة الأنترنت دون رقيب، وكثيرا ما أذهب إلى قاعات الأنترنت الموجودة في حيننا ولا أجد مكانا شاغرا، وألاحظ أن كل الأماكن مشغولة بالمراهقين يقضون الساعات الطوال، خصوصا مع وجود مكاتب مغلقة تمكنهم من الانفراد بالمشاهدة والسلامة من المراقبة، وأما الهاتف النقال فكأنه قد صنع فقط للمواعيد الأثمة، والغش في الامتحانات. وآمل من التلفزيون الجزائري ألا يكون تحت تصرف جميع الأذواق كما تنادي بذلك بعض الفضائيات، وإنما يكون وسيلة إعلامية هادفة.

3 - المؤامرات الخارجية التي تهدف إلى زعزعة كيان الأسرة في الجزائر وذلك عن طريق الترويج للمخدرات والفرن الهابط، وأشير هنا إلى أن الأسرة في المشرق العربي وفي تونس قد حُطِّمت، والسهم بدأت تتوجه نحو الأسرة الجزائرية، وما حدث مؤخرا في الحفل الغنائي الذي أقامه أحد المغنين المصريين أطلق صفارة الإنذار بأننا نمشي على خطى تونس التي وصلت فيها عمليات الإجهاض والانتحار إلى أرقام مفرغة، فهناك أطراف خارجية تتعاون مع مغفلين عندنا على تنظيم حفلات، ظاهرها التعاون والفرن والاستزاق، ولكن النتائج ستكون وخيمة، فينبغي وضع حد لهؤلاء، فالجزائر طهرتها دماء الشهداء ويجب أن تظل كذلك.

أولوياتنا تجاه الأسرة: أوقفوا معاول الهدم أولا

عند الحديث عن الأولويات فذلك يعني أن هناك أمورا أخرى ذات أهمية يجب عملها مع الأسرة، والأولويات هي ما يجب المبادرة إليه أولا، إذ لا تنفع الأمور الأخرى إذا تم البدء بها، وأهم الأولويات في نظري هي إزالة المعوقات قبل البدء في البناء.

1 - العمل على تزويج الذين تجاوزوا السن الطبيعية للزواج، ويكون ذلك بتوفير الحد الأدنى لقيام أسرة صغيرة، بأن توفر لهؤلاء ولو سكنا من غرفة واحدة، وعملا يمكن من الحصول على العيش، وفي الوقت ذاته وضع إجراءات قانونية صارمة للقضاء على الإباحية،

وهذه الأولوية ستقضي بلا شك على نسبة كبيرة من جرائم الإجهاض، وجرائم الانتحار، وأيضا المهجرة الفوضوية والأمراض والعقد النفسية.

2 - وضع عقوبات صارمة لمروجي المخدرات وحظر الفن الهابط ذلك أن هناك مؤامرات ومخططات خارجية تهدف إلى تبليد الفرد الجزائري المعروف بإبائه وشخصيته المتميزة، والكثير من عمليات الانتحار في تونس سببه الغناء الماجن.

3 - تخفيف الحجم الساعي لعمل المرأة الأم، وليس الغرض من ذلك حتى تتفرغ للتسوق كما هو المشاهد عند الكثيرات من نساءنا، وإنما الهدف هو تواجدها إلى جانب الأبناء مدة مناسبة وأطول مما هي عليه الآن.

إذا فرغنا من إزالة المعرقلات وأصبحت الأرضية مهيئة لإقامة صرح الأسرة، فحينها نبدأ بصناعة اللبنة القوية التي لا تؤثر فيها الرياح والعواصف، وأفضل ما يقوي تلك اللبنة هو التدين الواعي لا الشكلي العاطفي المنتشر عندنا، فقد أثبتت الإحصائيات المتعلقة بالانتحار أن البلاد الإسلامية هي أقل البلاد في هذه الجرائم على الرغم من الفقر والمشاكل، وفي إحصائيات جزئية في الجزائر تبث أن يوم الجمعة - عيد المسلمين الأسبوعي - هو أقل الأيام الذي تقع فيه الجرائم، وفي إحصاء عالمي تبث أن نسبة المتدينين من المجرمين لا تتعدى 08.5 بالمائة.

قائمة المراجع

- 1 - عاطف وصفي . الأثروبولوجيا الاجتماعية . دار النهضة العربية بيروت لبنان
- 2 - عبد الله خوج - فاروق عبد السلام - الأسرة العربية ودورها في الوقاية من الجريمة والانحراف - المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1409 هـ.
- 3 - موقع أمان - المركز العربي للمصادر والمعلومات حول العنف ضد المرأة 21 جوان 2008
- 4 - عيسى قاسمي - الملتقى الدولي حول مكافحة المخدرات - قسم علم النفس جامعة المسيلة
- 5 - موقع الخيمة السبت 21 جوان 2008
- 6 - منصور رحمانى - علم الإجرام والسياسة الجنائية - دار العلوم للنشر الحجار عنابة 2006
- 7 - مجلة البحوث والدراسات الإنسانية - منشورات جامعة سكيكدة - عدد 02 فيفري 2008.
- 8 - 2007-7-02 Magharebia_com.htm
- 9 - جريدة الأيام الجزائرية الخميس 26 جوان 2008 الموافق لـ 21 جمادى الآخرة 1429 هـ، العدد 832 /

السنة الثالثة

10 - www.annabaa.org

11 - موقع تونس أونلاين

12 - الشروق اليومي - ليوم 02-8-2003 عدد 837 ص 11 تحت عنوان شبح العنوسة يطارد العربيات

13 - المعيار مجلة علمية محكمة عدد 09 جويلية 2004

14 - عزالدين جميل عطية - التلفزيون والصحة النفسية للطفل - عالم الكتب القاهرة 2001

15 - قوادرية علي وآخرون - مشكلات وقضايا المجتمع في عالم متغير - سلسلة الدراسات الاجتماعية -

دار الهدى 2007